

## الفصل الحادى عشر

### أول العهد بيثرب

استقبال يثرب للمهاجر العظيم - بناء المسجد ومنزل النبي - تفكير محمد ﷺ في حرية العقيدة لأهل يثرب جميعاً - يهود المدينة - مؤاخاة محمد بين المهاجرين والأنصار - معاهدته مع اليهود لتقرير حرية الاعتقاد - زواج محمد بمائسة - الأذان للصلاة - مثل محمد وتعاليمه - قوة الدين الجديد وخوف اليهود منها - تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام - وفد نصارى نجران إلى المدينة - التقاء الأديان الثلاثة بيثرب - تفكير المسلمين في موقفهم من قريش.

#### أسباب استقبال اليثريين للنبي ﷺ:

خرج أهل يثرب لاستقبال محمد زرافات ووحدانا، رجلاً ونساء، بعد الذى ترمى إليهم من أخيار هجرته ومن انتصار قريش به، ومن احتمالته أشد القبط في هذه الرحلة المضنية بين كئيبان تهامة وصخورها التى ترد ضوء الشمس لظى وسعيراً. وخرجوا يثربهم تطلعهم، لما انتشر من خبر دعوته في أنحاء شبه الجزيرة وما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم، وكانت عندهم موضع التقديس. لكن خروجهم لم يكن راجعاً إلى هذين السببين وكفى، بل كان راجعاً أكثر من ذلك إلى أنه هاجر من مكة إلى يثرب ليقيم بها. فكل طائفة وكل قبيلة من أهل يثرب كانت ترتب على هذا المقام، من الناحية السياسية والاجتماعية، آثاراً شتى، هى التى استخفتهم أكثر مما استخفهم التطلع ليخرجوا فينظروا إلى هذا الرجل، وليروا هل تويد سيماء حدسهم، أو هى تدعوهم إلى تعديله. لذلك لم يكن المشركون ولا كان اليهود أقل إقبالا من المسلمين، مهاجرهم والأنصار، على استقبال النبي. ولذلك أحاطوا به جميعاً وكل ينفق قلبه خفقاناً مختلفاً عن غيره باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم. وقد اتبعوه إذ ألقى بخطام ناقته على غارها في شىء من عدم النظام أدى إليه حرص كل على أن يحتل محياه، وأن يحيط نواحيه جميعاً بنظرة ترسم في نفسه صورة من هذا الذى عقد بيعة العقبة الكبرى مع من بايعه من أهل هذه المدينة على حرب الأسود والأحمر من الناس، والذى هجر وطنه وفارق أهله واحتمل عداوتهم وأذاهم ثلاث عشرة سنة متتابعة، في سبيل توحيد الله توحيداً أساسه النظر في الكون، واجتلاء الحقيقة من طريق هذا النظر.

#### بناء المسجد ومسكن الرسول ﷺ:

بركت ناقة النبي عليه السلام على مرّيد سهل وسهيل ابني عمرو، فابتاعه لبينيه مسجداً له.

وأقام أثناء بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري. وعمل محمد ﷺ في بناء المسجد بيديه، ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته في بنائه، حتى أموه وأقاموا من حوله مساكن الرسول. وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن يُرهب أحدًا وقد كانت كلها البساطة بما يتفق وتعاليم محمد. كان المسجد قنأً فسيحًا، بُنيت جدراته الأربعة من الآجر والتراب، وسُقف جزء منه بسعف النخل وتُرك الجزء الآخر مكشوفًا وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكنًا. ولم يكن المسجد يُضاء ليلاً إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها. وكذلك ظل تسع سنوات متتالية سُدت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التي كان يعتمد سقفه عليها. ولم تكن مساكن النبي أكثر من المسجد ترفًا، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استنارًا.

كفالة حرية العقيدة:

بنى محمد ﷺ مسجده ومساكنه، وأوى من بيت أبي أيوب إليها. ثم جعل يفكر في هذه الحياة الجديدة التي استفتح، والتي نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة. فقد ألقى هذه المدينة وبين عشائرها من التناثر ما لم تعرف مكة؛ لكنه ألقى قبائلها وبطونها تصبو إلى حياة فيها من السكنة ما يجنبها الخلاف والحزازات التي مزقتها في الماضي شر مُمزق، وما يهيئ لها في المستقبل طمأنينة تطمع معها أن تكون أوفر من مكة ثروة وأعظم جاهًا. وما كانت ثروة يثرب ولا كان جاهها أول ما يعنى محمدًا وإن كان بعض ما يعنيه. إنما كان هم الأول والآخر هذه الرسالة التي عهد الله إليه في تبليغها والدعوة إليها والإنذار بها. لقد حاربها أهل مكة من يوم بعثه إلى يوم هجرته أهول الحرب، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها وكل الأنفس إيمانًا بها من خوف أذى قريش وعنتها. والأذى والعنت يحولان بين الإيمان والقلوب التي لما يدخل الإيمان فيها. فيجب أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم بأن من اتبع الهدى ودخل في دين الله يأمن من أن يصيبه الأذى، ليزداد المؤمنون إيمانًا، ولتقبل على الإيمان المتردد والخائف والضعيف. في هذا كان يفكر محمد ﷺ أول طمأنينته إلى مسكنه بيثرب، وإلى هذا كانت تتجه سياسته، وفي هذا الاتجاه يجب أن يُترجم لحياته. هو لم يكن يفكر في ملك ولا في مال ولا في تجارة؛ بل كان كل هم توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم. يجب أن يكون المسلم واليهودي والنصراني سواء في حرية العقيدة، وفي حرية الرأي وحرية الدعوة إليه. فالحرية وحدها هي الكفيلة بانتصار الحق ويتقدم العالم نحو الكمال في وحدته العليا، وكل حرب على الحرية تمكين للباطل ونشر لجيوش الظلام لتقضى على جذوة النور المضيئة في النفس الإنسانية، والتي تصل بينها وبين الكون كله، من أزله إلى أبده، صلة اتساق ومحبة ووحدة، لا صلة نفور وفناء.

رغبة محمد ﷺ عن القتال:

هذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمد ﷺ منذ الهجرة، وهي التي جعلته

جنوحًا للسلم، راغبًا عن القتال، مقتصدًا طول حياته أشد القصد فيه، غير لاجئٍ إليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية دفاعًا عن الدين وعن العقيدة. ألم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش ينيها لأمرهم: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لتميلن على أهل منى غداً بأسيا فنا»، فكان جوابه: «لم نُؤمر بذلك»؟ ألم تكن أول آية نزلت في القتال: ﴿إِذْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>. ألم تكن الآية التي تلت هذه في أمر القتال قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

تفكير محمد إذاً إنما كان متجهًا إلى غاية واحدة عليا؛ هي كفالة حرية العقيدة والرأى كفالة في سبيلها وحدها أجل القتال، ودفاعًا عنها أبيض دفع المعتدى حتى لا يُفتن أحد عن دينه، ولا يُظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه.

### تفكير أهل يثرب:

بينما كانت هذه وجهة محمد ﷺ في التفكير في أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها، كان أهل هذه المدينة ممن استقبلوه يفكرون، وإن كان كل فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره. فقد كان يثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار؛ وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت. ثم كان بها اليهود، يقيم منهم بنو قَيْنُقَاع في داخلها، ويقيم بنو قُرَيْظَةَ في فدك، وبنو النضير على مقربة منها، ويهود خَيْبَر في شمالها. أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط، وإن بقيت في نفس محمد بعض المخاوف أن تنور البغضاء القديمة بينهم يوماً، مما جعله يفكر في وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيراً كان له من بعد أثره. وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج، فقد أَلْفُوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً نهكتهم الحروب الماضية، فاتجه همهم للوقية بين هؤلاء وأولئك. وأما اليهود فبادروا بادئ الرأي إلى حسن استقبال محمد ظناً منهم أن في مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله في جلفهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي أوجلت اليهود، شَعَبَ الله المختار، عن فلسطين أرض العباد ووطنهم القومي. وانطلق كلٌّ على أساس تفكيره يمهد أسباب النجاح لبلوغ غايته.

### المؤاخاة بين المسلمين:

هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل. هنا يبدأ طور السياسي الذي أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحكمة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً ثم يطأطئ

(١) سورة الحج آية ٣٩.

(٢) سورة الأنفال آية ٣٩.

الرأس إجلالا وإكبارًا. كان أكبر همه أن يصل بيثرب، موطنه الجديد، إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز، وإن كانت قد عرفت قبل ذلك بكثير في بلاد اليمن. فتشاور هو ووزيراه أبو بكر وعمر؛ فكذا كان يسميها. وقد كان أول ما انصرف إليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، للقضاء على كل شبهة في أن تتور العداوة القديمة بينهم. ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتأخروا في اقه أخوين أخوين. فكان هو وعلّى بن أبي طالب أخوين. وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين. وكان عمر بن الخطاب وعتيان بن مالك الخزرجي أخوين. وتأخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب، بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة في أعقاب هجرة الرسول إياها، مع واحد من الأنصار إزاء جعل له الرسول حكم إزاءه الدم والنسب. وبهذه المؤاخذة ازدادت وحدة المسلمين توكيدًا.

#### المشتغلون بالتجارة:

وأظهر الأنصار من كرم الضيافة لإخوانهم المهاجرين ما تقبله هؤلاء أول الأمر مقتبطين. ذلك أنهم تركوا مكة، وتركوا وراءهم ما يملكون فيها من مال ومتاع، ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجيدون قوتهم. ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفان؛ أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكة شيئًا ينفعه. وقد ذهب حمزة عم الرسول يومًا يطلب إليه أن يجيد له ما يقتات به. وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، ولم يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شيئًا. فعرض عليه سعد أن يشاطره ماله؛ فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدلّه على السوق، وفيها بدأ يبيع الزبد والجبن، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة في زمن قصير وأن يمهر إحدى نساء المدينة، وأن تكون له قوافل تذهب في التجارة وتحجى. وصنع كثير غير عبد الرحمن من المهاجرين صنيعه؛ فقد كان هؤلاء المكيين من الدراية في شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم: إنه ليُحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهبًا.

#### المشتغلون بالزراعة:

أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلّى بن أبي طالب وغيرهم. فقد عملت أسرهم في الزراعة في أراضي الأنصار مزارعة مع ملاكها. وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شدة وبأساء؛ لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كلاً على غيرهم؛ فكانوا يجهدون أنفسهم في العمل أشد الجهد، ويجدون في ذلك من لذة الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم ما لم يكونوا يجهدونه بمكة. على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا، كانوا في حال من العوز والمترية، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه. هؤلاء أفرد محمد لهم صفة المسجد (وهي المكان المسقوف منه)

يبيتون بها ويأورون إليها، ولذلك سُموا أهل الصُّفة، وجعل لهم رزقًا من مال المسلمين والأنصار الذين آتاهم الله رزقًا حسنًا.

### مودة محمد ﷺ واليهود:

اطمأن محمد ﷺ إلى وحدة المسلمين بهذه المواخاة. وهي لا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر، تنبئ مقدارها حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الواقعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لإفساد أمرهم. لكن العمل السياسي الجليل حقًا والذي يدل على أعظم الاقتدار، ذلك ما وصل به محمد إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظامها السياسي بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف. وقد رأيت اليهود كيف أحسنوا استقباله أملًا في استرجاعه إلى صفوفهم. وقد بادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها، وإلى توثيق صلاتهم بهم؛ فحدثت إلى رؤسائهم وتقرَّب إليه كبارؤهم، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون. وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم، وكانت قبلته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبله أنظارهم ومتأبة بنى إسرائيل جميعًا. وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلى مودة وقرى. كما أن سيرته، وعظيم تواضعه، وجميل عطفه، وحسن وفائه، وفيض برّه بالفقير والبناس والمحروم، وما أورته ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب؛ كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد. معاهدة هي، في اعتقادنا، من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مرِّ التاريخ. وهذا الطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول. فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية ييلفونها للناس من طريق الجدال ومن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية الناس في الإيمان بها، ولو دفاعًا مسلحًا فيه الحرب والقتال. انتشرت المسيحية على يد الحواريين من بعد عيسى، فظفروا ومن تبعهم يعذبون، حتى جاء من الملوك من لأن قلبه لهذا الدين فأواه ونشره. وكذلك كان أمر سائر الأديان في شرق العالم وغربه. فأما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والقاتح، كل ذلك في سبيل الله، وفي سبيل كلمة الحق التي بُعث بها. وهو قد كان في ذلك كله عظيمًا، وكان مثل الكمال الإنساني على ما يجب أن يكون.

كتب محمد بين المهاجرين والأنصار كتابًا واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم. وهذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم

وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربّعتهم<sup>(١)</sup> يتعاقلون بينهم وهم يقدّون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربّعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين». ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار: بنى الحارث، وبنى ساعدة، وبنى جُشم، وبنى النجار، وبنى عمرو بن عوف وبنى النبيت، إلى أن قال: وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا<sup>(٢)</sup> بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة<sup>(٣)</sup>، ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن. وأن ذمّة الله واحدة يُجبر عليهم أديانهم. وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة<sup>(٤)</sup> غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وأن سلم المؤمنين واحدة لا يُسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. وأن المؤمنين بيىء<sup>(٥)</sup> بعضهم عن بعض بما نال دماهم في سبيل الله. وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وأنه لا يُجبر مشرك مألًا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن. وأنه من اعتبط<sup>(٦)</sup> مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قودّ به إلا أن يرضى وليّ المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وأنه لا يحل للمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدّثًا<sup>(٧)</sup> ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل. وأنكم معها اختلقتم فيه من شيء فإن مرّده إلى الله وإلى محمد ﷺ وأن اليهود يُتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو إثم فإنه لا يوتغ<sup>(٨)</sup> إلا نفسه وأهل بيته. وأن يهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جُشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى تَعْلَبَة ولجفنة ولبنى الشطيبة<sup>(٩)</sup> مثل ما ليهود بنى عوف. وأن موالى تَعْلَبَة كأنفسهم. وأن بطانة يهود كأنفسهم. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وأنه لا يتحجز<sup>(١٠)</sup> على نار جرح. وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم. وأن الله

(١) على ربعتهم، أى على استقامتهم، يريد على أمرهم الذى كانوا عليه.

(٢) المفرح: المنقل بالدين والعيال.

(٣) دسيعة ظلم: طبيعته.

(٤) أى المساواة فى المعاملة.

(٥) يقال: أبيت فلانا بفلان إذا قتله به، يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماهم.

(٦) اعتبطه أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله.

(٧) محدثاً: جانبياً.

(٨) يوتغ: علك ويفسد.

(٩) فى البداية والنهاية لابن كثير: «ولبنى الشطيبة».

(١٠) يريد: لا يلتزم جرح على نار.

على أبرّ هذا. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم. وأنه لم يأتهم امرؤ بحليفه. وأن النصر للمظلوم. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وأنه لا تُجَار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجارٍ يخاف فساده فإن مرّده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه. وأنه لا تجار تريش ولا من نصرنا. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه زيلبسوته فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه. وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن برّ واتقى».

#### فتح جديد في الحياة السياسية:

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها محمد ﷺ منذ ألف وثلثمائة وخسين سنة، والتي تقرر حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة. وهي فتح جديد في الحياة السياسية والحياة المدنية في عالم يومئذ؛ هذا العالم الذي كانت تعيث به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فساداً. ولئن لم يشترك في توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، إنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبي صُحفاً مثلها. وكذلك أصبحت المدينة وما ورائها حرماً لأهلها؛ عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية.

#### زواج النبي ﷺ من عائشة:

طاب محمد ﷺ نفساً بهذه النتيجة، وسكن المسلمون إلى دينهم، وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين ويقومونها فرادى، لا يخافون أذى ولا يخشون فتنة. إذ ذاك بنى محمد ﷺ بعائشة بنت أبي بكر، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، وكانت فتاة رقيقة حلوة القسّمات محببة العشرة، وكانت تخطو دراكماً من الطفولة إلى الصبا، وكانت ذات ولع باللعب والمرح، وكانت نامية نمواً حسناً. ووجدت في محمد ﷺ أول انتقالها إليه بمسكنها إلى جانب مسكن سودة في جوار المسجد أبا برّاً عطفاً، وزوجاً مشفقاً رقيقاً، لا يأبى عليها أن تعبت وتلهو بالأعيان؛ وتسليه بذلك عن دائم تفكيره في العبد العظيم الذي ألقى عليه، وفي سياسة يثرب التي بدأ يوجهها إلى خير وجهة.

## الأذان للصلاة:

في هذه الفترة التي سكن فيها المسلمون إلى دينهم فرضت الزكاة وفرض الصيام وقامت الحدود، وتمكنت بيثرب شوكة الإسلام. وكان محمد حين قدم المدينة إنما يجتمع إليه الناس للصلاة لحين مواعيتها بغير دعوة؛ ففكر في أن يدعو للصلاة ببوق كالبوق الذي يدعو به اليهود لصلاتهم. لكنه كره البوق فأمر بالناقوس، فُنِحَت ليضرب به للصلاة، كما تفعل النصارى. على أنه بعد مشورة عمر وطائفة من المسلمين على رواية، وبأمر الله على لسان الوحي في رواية أخرى، عدل عن الناقوس أيضاً إلى الأذان، وقال لعبد الله بن زيد بن ثعلبة: «قم مع بلال فألقها عليه - أى صيغة الأذان - فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك». وكان لامرأة من بني النجار منزل إلى جانب المسجد أعلى منه، فكان بلال يرقاه فيؤذن عليه. وكذلك صار أهل يثرب جميعاً يسمعون منذ الفجر في كل يوم دعوة إلى الإسلام مرتلة ترتيلاً حسناً بصوت رطب جميل يوجهها بلال مع كل ريح إلى كل النواحي، ويلقى في أذن الحياة نداءه: «الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح. الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله». وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمناً، وأصبحت يثرب مدينة الرسول، وأصبح غير المسلمين من أهلها يشعرون بقوة المسلمين قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية في سبيل الإيمان وذات الأذى بسببه ألواناً، وها هي ذى اليوم تجني ثمرة الصبر، وتستمتع من حرية العقيدة بما قرر الإسلام من أن ليس لإنسان على إنسان سيادة، ومن أن الدين لله وحده، والعبودية له وحده، والناس أمام وجهه الأكرم سوايسية، لا يُجزون إلا بأعمالهم وبالنية التي تصدر هذه الأعمال عنها.

وانفصح المجال أمام - محمد ﷺ ليعلم تعاليمه، وليكون بذاته ويتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم، وليصبح بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلامية.

## الإخاء أساس الحضارة الإسلامية:

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنساني، إخاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه، وحتى يصل به هذا الإخاء إلى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة. سأل رجل محمداً: أى الإسلام خير؟ فقال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف». وفي أول خطبة ألقاها بالمدينة قال: «من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمر فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها». وفي خطبته الثانية قال: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقواه، واصدقوا الله صالح ما تقولون، وتحابوا بروح الله بينكم: إن الله يغضب أن ينتكث عهده». بهذا ويمثله كان يحدث أصحابه وكان يخاطب الناس في مسجده،

مستنداً إلى جذع من جذوع النخل التي يعتمد عليها سقفه، حتى أمر فضع له منبر من ثلاث درجات، كان يقوم على درجته الأولى خطيباً. وكان يجلس في درجته الثانية.

إخاء محمد ﷺ والمسلمين:

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة إلى هذا الإخاء الذي جعل منه حجر الزاوية في حضارة الإسلام، بل كانت أعماله وكان مثله هو هذا الإخاء في أسمى صور كماله. كان رسول الله ﷺ؛ لكنه كان يأبى أن يظهر في أي من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية. كان يقول لأصحابه: «لا تُطروفي كما أطرت النصارى ابنَ مريم؛ إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله». وخرج على جماعة من أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا له، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً». وكان إذا بلغ في مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس. وكان يأنزح أصحابه ويخالطهم ويحدثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويحب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عنز المعتز، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أطيب الناس نفساً وأكثرهم تيسبباً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب. وكان في بيته في مهنة أهله يظهر ثوبه ويرقعته ويحلب شاته، ويحصف نعله، ويخدم نفسه، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويقضى حاجة الضعيف واليائس والمسكين. وكان إذا رأى أحداً في حاجة أثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة. وكان لذلك لا يدخل شيئاً لفته؛ حتى لقد توفي ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت عياله. وكان جم التواضع، شديد الوفاء، حتى لقد وفد للنجاشى وقد فقام بخمتمهم؛ فقال له أصحابه: يكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم. وبلغ من وفائه أنه ما ذكرت خديجة إلا ذكرها أطيب الذكر؛ حتى كانت عائشة تقول: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة لما كنت أسمع يذكرها. ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها؛ فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وأن حسن العهد من الإيمان. وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يدع بنى بناته يداعبونه أثناء صلاته. بل لقد صلى بأمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها.

رفق محمد ﷺ بالحيوان:

ولم يقف بالبرِّ والرحمة اللذين جعلهما دعامة الإخاء الذي قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الإنسان، بل عداها إلى الحيوان كذلك؛ كان يقوم بنفسه فيفتح يابه لهرّة تلمس عنده ملجأ، وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض، وكان يمسح لجواده بكُم قميصه. وركبت عائشة بعيراً فيه صعوبة فجعلت تردده؛ فقال لها: عنيك بالرفق. وكذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها، وأظلت كل من كان في حاجة إلى تقيؤ ظلالها.

## إخاء عدل ورحمة:

وهي لم تكن رحمة ضعف ولا استكانة، ولم تشبها شائبة من ولا استعلاء إنما كانت إخاء في الله بين محمد والذين اتصلوا به جميعاً. ومن ثم يفترق أساس حضارة الإسلام عن كثير من سائر الحضارات. الإسلام يضع العدل إلى جانب الإخاء ويرى أن الإخاء لا يكون إخاءً إلا به. ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(٢)</sup>.

يجب أن يكون الدافع النفساني وحده والإرادة الحرة المطلقة وابتغاء وجه الله دون أي اعتبار آخر مصدر الإخاء وما يدعو إليه من بر ورحمة. ويجب أن يصدر ذلك عن نفس قوية لا تعرف لغير الله إسلاماً ولا تضعف ولا تتهالك باسم الورع أو التقوى، ولا يتسرب إليها خوف أو وهن إلا عن معصية تجرّحها أو إثم تقترفه. ولا تكون النفس قوية إذا كانت في حكم غيرها، ولا تكون قوية إذا خضعت لحكم أهوائها وشهواتها. وقد هاجر محمد وأصحابه من مكة حتى لا يكونوا في حكم قريش ولا يؤهن أذاها نفس أحد منهم. والنفس إنما تخضع لحكم الأهواء والشهوات إذا تحكّم الجسد في الروح وغلبت الشهوة العقل، وأصبحنا نقيم للحياة الخارجة عنا سلطاناً على حياتنا نحن، على حين أننا في غنى عنها وأنا أصحاب السلطان عليها.

## قوة محمد ﷺ على الحياة - زهده في الطعام واللباس:

وكان محمد المثل الأعلى في القوة على الحياة، قوة جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ما عنده؛ حتى قال أحدهم: إن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى فاقة. ولكي لا يكون لشيء مما في الحياة سلطان عليه، وليكون له هو كل السلطان عليها، كان شديد الزهد في مآذنها، على شدة رغبته في الإحاطة بها وفي معرفة أسرارها، وتوقفه إلى غاية الحقيقة من أمرها. بلغ من زهده فيها أن كان في فراشه الذي ينام عليه أدماً حشوه ليف، وأنه لم يشبع قط، ولم يطعم خبز الشعير يومين متوالين، وكان السويق طعام أكلته الكبرى، وكان التمر طعام سائر يومه. وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله. ولقد عانى الجوع غير مرة، حتى كان يشد على بطنه حجراً يكظم به على صيحات معدته. ذلك كان المعروف عنه في طعامه، وإن لم ينعه ذلك من أن ينال في بعض الأحيان من أطيب الرزق، وأن يعرف عن حبه زئد الخروف والقرع والعسل والحلوى.

وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام. أعطته امرأة يوماً ثوباً في حاجة إليه، فطلب إليه أحدهم

(١) سورة البقرة آية ١٩٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٩.

ما يصلح كفنًا لميت فأعطاه الثوب. وكان معروف ثيابه القميص والكساء، وكان من صوف أو قطن أو تيل. على أنه في بعض الأحيان لم يكن يأبي أن يلبس من أنسجة اليمن لباسًا فخيًا يناسب المقام إذا اقتضاه المقام ذلك. وكان يحتذى حذاء بسيطًا، ولم يلبس حُفًا إلا حين أهدى إليه النجاشي حُفَيْنِ وسراويل.

لم يكن هذا الزهد، ولا هذه الرغبة عن الدنيا تنقشًا للتشغف، ولا كانا من فرائض الدين؛ فقد جاء في القرآن: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾<sup>(١)</sup> وجاء: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي الأثر: «أحرثُ لديناك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». لكن محمدًا ﷺ أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى في القوة على الحياة قوة لا يتطرق إليها ضعف، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أمرٌ مما يجعل لغير الله عليه سيادة. والإخاء الذي يستند إلى هذه القوة ويكون له من المظهر ما ضرب محمد له المثل الأعلى فيها رأيت، إخاء محض بالغ غاية الإخلاص والسمو، إخاء لا تشوبه شائبة، لأن العدل يتضافر فيه مع الرحمة، ولأن صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه لا إرادته الحرة المطلقة. لكن الإسلام إذ يضع العدل إلى جانب الرحمة يضع العفو إلى جانب العدل، على أن يكون عفوًا عن مقدرة؛ ليكون مظهر الرحمة صريحًا صحيحًا، وليكون القصد منه إلى الإصلاح صادقًا.

سنة محمد ﷺ:

هذا الأساس الذي وضعه محمد للحضارة الجديدة التي يقيمها يتلخص بصورة واضحة فيما روى عن علي بن أبي طالب أنه سأل رسول الله عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكرُ الله أنيسى، والثقة كنزى، والحزن رفيقى؛ والعلم سلاحى، والصبر رداي، والرضا غنيمتى، والفقر فخرى، والزهد جرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبي، والجهاد خُلقي، وقرّة عيني في الصلاة».

بدء مخاوف اليهود:

تركت تعاليم محمد ﷺ هذه وتركت مثله وقدوته في النفوس أعمق الأثر؛ حتى لقد أقبل كثيرون على الإسلام، وازداد المسلمون في المدينة شوكة وقوة. هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد في موقفهم من محمد ﷺ وأصحابه. لقد عقدوا معه عهدًا، وكانوا يطعمون في أن يضموه إلى صفوفهم وفي أن يزدادوا به على النصارى منعة وقوة. وهذا هو أقوى من هؤلاء وأولئك جميعًا، وهذه كلمته

(١) سورة البقرة آية ٥٧.

(٢) سورة القصص آية ٧٧.

تزداد ثباتاً. بل ها هو ذا يفكر في أمر قريش وإخراجها إياه وإخراجها المهاجرين من مكة، وفتنتها من استطاعت فتنته من المسلمين عن دينه، أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر وسلطانه الروحي يمتد؛ مكثفين بالأمن في جواره أمناً يزيد تجارتهم سعةً وثروتهم ربحاً؟ لعلهم كانوا يقتنعون بهذا لو أنهم آمنوا ألا تمتد دعوته إلى اليهود وألا تفشوا في عامتهم، على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبي من غير بني إسرائيل.

إسلام عبد الله بن سلام:

لكن حبراً عالمًا من كبار أحيارهم وعلماهم، هو عبد الله بن سلام، لم يلبث حين اتصل بالنبي أن أسلم، وأمر أهل بيته فأسلموا معه. وخشى عبد الله أن يقول اليهود فيه إذا علموا بإسلامه، غير ما اعتادوه. فطلب إلى النبي ﷺ أن يسألهم عنه: ما شأنه؟ قيل أن يعرف أحد منهم إسلامه. قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا. فلما خرج عبد الله إليهم وتبينوا ما صنع ودعاهم هو إلى الإسلام، خافوا عاقبة أمره، فوقعوا فيه وأذاعوا عنه قالة السوء في أحياء اليهود كلها؛ وأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا لمحمد ويُنكروا نبوته. وما كان أسرع أن اجتمع إليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهم نفاقاً، جرياً وراء مغنم أو إرضاء لذي عُصبة وبأس.

حرب الجبل بين محمد ﷺ واليهود:

وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشدَّ لَدَدًا وأكبر مكرًا من حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش بمكة. وفي هذه الحرب البثرية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين. أقامت اليهود جميعاً صفوفاً مترابطة مهاجمون بها محمدًا ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار. ودسوا من أحيارهم من أظهر إسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى، ثم ما لبث الحين بعد الحين أن يُبدي من الشكوك والريب ويلقى على محمد ﷺ من الأسئلة ما يحسه يزعزع في أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التي يدعو إليها. وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقاً أيضاً ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين. وبلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا يُنكروا ما في التوراة، وأنهم جميعاً، وكلهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو إسرائيل والمشركون الذين يتخذون أصنامهم لتقريبهم إلى الله زلفى.

كانوا يسألون محمدًا ﷺ: إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله؟! وكان محمد يجيبهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>(١)</sup>.

## محاولة الوقعة بين الأوس والخزرج:

وَقَطِنَ الْمُسْلِمُونَ لِأَمْرِ خُصُومِهِمْ وَعَرَفُوا غَايَةَ سَعْيِهِمْ. وَرَأَوْهُمْ يَوْمًا فِي الْمَسْجِدِ يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ خَافِضِينَ أَصْوَاتَهُمْ قَدْ لَصِقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَأَمَرَ بِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ فَأَخْرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ إِخْرَاجًا عَنِيفًا. وَلَمْ يَنْتَهَمْ ذَلِكَ عَنْ كَيْدِهِمْ وَسَعْيِهِمْ فِي الْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. مَرًّا أَحَدَهُمْ (شَاسَ بْنَ قَيْسٍ) عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ جَمَعَهُمْ؛ فَمَازَهُمْ بِصِلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَائِكَةُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ؛ وَمَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلَأُوهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ. وَأَمَرَ فَنِي شَابًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَعَهُمْ أَنْ يَنْتَهَزَ فُرْصَةً يَذْكَرُ فِيهَا يَوْمَ بُعَاثَ وَمَا كَانَ مِنْ انْتِصَارِ الْأَوْسِ فِيهِ عَلَى الْخَزْرَجِ. وَتَكَلَّمَ الْغَلَامُ، فَذَكَرَ الْقَوْمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا وَاخْتَصَمُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنْ شِئْتُمْ عُدْنَا إِلَى مِثْلِهَا. وَبَلَغَ مُحَمَّدًا ﷺ الْأَمْرَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَذَكَرَهُمْ بِمَا أَلَّفَ الْإِسْلَامَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَجَعَلَهُمْ إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ. وَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى يَكِي الْقَوْمَ وَعَاتِقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ جَمِيعًا.

بَلَغَ الْمَجْدَالَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْيَهُودِ مِيلًا مِنَ الشَّدَةِ يَشْهَدُ بِهِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِيهِ. فَقَدْ نَزَلَ صَدْرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ إِلَى الْآيَةِ الْحَادِيَةِ وَالْثَمَانِينَ مِنْهَا، وَنَزَلَ قِسْمٌ عَظِيمٌ مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ، وَكُلَّهُ يَذْكَرُ هَؤُلَاءِ الْكُتَابِيِّينَ وَإِنْكَارَهُمْ مَا فِي كِتَابِهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ لِكُفْرِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ أَشَدَّ اللَّعْنَةِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

قصة فتاحص:

وَبَلَغَ الْمَجْدَالَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ حَدًّا كَانَ يَصِلُ أحيانًا، مَعَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ عَهْدٍ، إِلَى الْإِعْتِدَاءِ بِالْأَيْدِي. وَحَسْبُكَ، لِتَقْدَرِ هَذَا، أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ دِمَاةِ الْخَلْقِ وَطُولِ الْأَنَاةِ وَلِينِ الطَّبِيعِ، تَحَدَّثَ إِلَى يَهُودِيٍّ يَدْعَى فِتْحَاصَ، يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ فَرَدَّ فِتْحَاصَ بِقَوْلِهِ: «وَاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا بَنَّا إِلَى اللَّهِ مِنْ فَقْرٍ وَإِنَّا إِلَيْنَا لَفَقِيرٌ، وَمَا تَنْضَرُحُ إِلَيْهِ كَمَا يَنْضَرُحُ إِلَيْنَا. وَإِنَّا عَنْهُ أَغْنِيَاءُ وَمَا هُوَ عَنَّا بِغْنَى. وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا عَنَّا مَا اسْتَقْرَضَنَا أَمْوَالَنَا كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبِكُمْ، يَنْهَاجُكَ عَنِ الرَّبَا وَيُعْطِينَاهُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا مَا أَعْطَانَا» وَفِتْحَاصُ يَشِيرُ هُنَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾<sup>(٢)</sup>.

لَكِنْ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَطَّقْ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ صَبْرًا، فَغَضِبَ وَضَرَبَ وَجْهَ فِتْحَاصَ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَقَالَ:

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٥.

(١) سورة البقرة الآيات من ٨٧ إلى ٨٩.

والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله! وشكا فنحاص أمره إلى النبي ﷺ وأنكر ما قاله لأبي بكر في الله: فنزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١).

لم يكف اليهود بالوقعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج من هؤلاء، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردّهم إلى الشرك دون محاولة تهويدهم، بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة محمد نفسه؛ ذلك أن أحبارهم وأشرفهم وسادتهم ذهبوا إليه وقالوا: «إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا، وإنا إن اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، فنحتكم إليك فتقضى لنا فتنبك وتؤمن بك». فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢).

#### صرف القبلة إلى الكعبة:

ضاق اليهود ذرعاً بحمد، ففكروا في أن يمكروا به، وأن يُقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلاه أذى قريش إياه وأصحابه عن مكة؛ فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم، وأنه إن يكن رسولاً حقاً فجديراً له أن يصنع صنيعهم، وأن يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى. لكن محمداً لم يحتج إلى طويل تكفير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به. وأوحى إليه الله يومئذ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل، فنزلت الآية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٣).

وأنكر اليهود عليه ما فعل، وحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته؛ فنزل قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (٤).

(٣) سورة البقرة آية ١٤٤.

(٤) سورة البقرة ١٤٢ و ١٤٣.

(١) سورة آل عمران آية ١٨١.

(٢) سورة العنقبة آيتا ٤٩ و ٥٠.

وفد نصارى نجران:

في هذا الوقت الذى اشتد فيه الجدل بين محمد ﷺ واليهود وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكباً؛ من بينهم من شرف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات. ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى مدينة النبي حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف، طمعاً في أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ به العداوة، فيريح النصرانية المتاخمة في الشام وفي اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب. واجتمعت الأديان الثلاثة الكتابية بمجيء هذا الوفد وبجداله النبي وبقيام ملحة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والإسلام. فأما اليهود فكانوا يُنكرون رسالة عيسى ومحمد إنكاراً فيه من العنت ما رأيت، ويزعمون أن عزيراً ابن الله. وأما نصارى فكانوا يقولون بالتثليث وألوهية عيسى. وأما محمد ﷺ فكان يدعو إلى توحيد الله، وإلى الوحدة الروحية تنتظم العالم من أزله إلى أبده. كان اليهود والنصارى يسألونه عن من يؤمن بهم من الرسل فيقول:

﴿أَمْنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وكان ينكر عليهم أشد الإنكار كل ما يلقى أية شبهة على وحدة الله، ويذكر لهم أنهم حرفوا الكلم مما في كتبهم عن مواضعه وأنهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيون والرسل الذين يُقرؤون لهم بالنبوة، وأن ما جاء به عيسى وموسى ومن سبقهم لا يختلف في شيء عما جاء هو به، لأن ما جاءوا به إنما هو الحقيقة الأزلية الخالدة التي تتكشف في جلال وضحوحها وعظمة بساطتها لكل من نزه نفسه عن الخضوع لغير الله في عظمة وحدته، ونظر في الكون على أنه وحدة متصلة نظرة سامية فوق أهواء الساعة ومطامع العاجلة وشهوات المادة، مجردة من الخضوع الأعمى لأوهام العامة ولما وجد عليه آباءه وأجداده.

مؤتمر الأديان الثلاثة:

أى مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذى شهدت يثرب، تلتقى فيه الأديان الثلاثة التى تتجاذب حتى اليوم مصابير العالم، وتلتقى فيه لأسمى فكرة وأجل غاية لم يكن مؤتمراً اقتصادياً، ولا كان مرماه أى غرض من هذه الأغراض المادية التى ينطح عالمنا اليوم عبثاً صخرتها؛ إنما كان مرماه غاية روحية تقف من ورائها في أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب أرباب المال وذوى الملك والسلطان، ويقف فيه محمد ﷺ لغاية روحية إنسانية بحتة على عليه الله فى سبيلها الصبغة التى يلقى

بها إلى اليهود والنصارى وإلى الناس كافة، يقول لهم فيها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

تراجع وفد النصارى ورجوعهم:

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا في هذه الدعوة: ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله! فأما الروح المخلصة الصادقة، فأما النفس الإنسانية التي كَرَّمَت بالعقل والعاطفة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره. لكن في الحياة الإنسانية إلى الجانب النفساني جانبها المادي. فيها هذا الضعف الذي يجعلنا نقبل لغرنا علينا سلطاناً بثمن يشتري به أنفسنا وأرواحنا وقلوبنا. فيها هذا الغرور القتال للكرامة وللعاطفة ولتور النفس العاقلة. هذا الجانب المادي المصور في المال وفي الجاه وفي كاذب الألقاب والرتب، هو الذي جعل أبا حارثة أكثر نصارى نجران علماً ومعرفةً يُدلى إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد، فلما سأله رفيقه: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا كان جوابه: يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

دعا محمد ﷺ اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يلاعن النصارى؛ فأما اليهود فكان بينه وبينهم عهد المواعدة. إذ ذاك تشاور النصارى ثم أعلنوا إليه أنهم رأوا ألا يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم. ولكنهم رأوا حرص محمد على العدل حرصاً احتذى أصحابه فيه مثاله، فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم. وبعث محمد معهم أبا عبيدة بن الجراح ليقتضى بينهم فيما اختلفوا فيه.

التفكير في أمر قريش ومكة:

وجعل محمد ﷺ يمكِّن للحضارة التي وضع حجر الأساس فيها بتعاليمه ومثله؛ وجعل يفكر هو وأصحابه من المهاجرين فيما لم يفتهم التفكير لحظة فيه منذ هجرتهم من مكة: فيما يجب أن يكون موقفهم من قريش وأمرهم معهم. ولقد كان يدفعهم إلى هذا التفكير دوافع عدة؛ ففي مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم ومكان حجهم وحج العرب جميعاً. أفتراهم ينقطعون عن هذا الواجب المقدس الذي كانوا يقومون به إلى يوم أخرجوا من مكة؛ وفيها ما يزال لهم أهل تهوى إليهم نفوسهم وتشفق من بقائهم على الشرك أفندتهم وقلوبهم. وفيها بقيت أموالهم ومتاعهم وتجارتهم مما منعهم قريش منه حين هجرتهم. ثم إنهم إذ حضروا المدينة كانت موبوءة بالحمى فأصابهم منها عنتٌ شديدة،

وبلغت منهم حتى جُهِدُوا مرضًا وكانوا يصلون قعودًا؛ فزاد ذلك في تخناتهم إلى مكة. وهم قد أخرجوا من مكة، كارهين فكأنهم خرجوا مغلوبين على أمرهم. وليس في طبع هؤلاء القرشيين أن يصبروا على الضيم أو أن يدعنوا للقلب دون تفكير في الثأر لأنفسهم منه. وإلى جانب هذه الدوافع جميعًا كان يحركهم الدافع الطبيعي دافع الحنين إلى الوطن، إلى هذا المكان الذي منه نبتنا وفيه نشأنا ولأرضه وسهله وجبله ومائه كان أول حديثنا وأول صداقتنا وأول ودنا. هذه البقعة من الأرض نمتنا صغارًا فإليها مشوانا كبارًا، بها تتعلق قلوبنا وعواطفنا، وعننا ندود بقوتنا وبمالنا، ونضحى بجهودنا وبحياتنا، وفيها نود أن ندفن بعد موتنا لنعود إلى ترابها الذي خرجنا منه. هذا الدافع الطبيعي أذكى في أنفس المهاجرين سائر الدوافع، وجعلهم لا ينفكون يفكرون في قریش وفيما يجب أن يكون موقفهم منها. لن يكون هذا الموقف موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على الأذى ثلاثة عشر عامًا سويًا. والدين الذي احتملوا فيه هذا الأذى والذي هاجروا في سبيله لا يقرّ الضعف ولا اليأس ولا الاستكانة. وإذا كان يمتّ الاعتداء وينكره، ويقرّر الإخاء ويدعو إليه، فإنه يفرض الدفاع عن النفس وعن الكرامة وعن حرّية العقيدة وعن الوطن. ولهذا الدفاع أتم محمد مع أهل يثرب بيعة العقبة الكبرى. فكيف يؤدي المهاجرون هذا الفرض عليهم الله ولبيته الحرام ولوطنهم مكة المحبّب إلى قلوبهم؟ هذا ما ستّجه إليه سياسة محمد والمسلمين معه، حتى يتم له فتح مكة، وحتى يعلو دين الله وتعلو كلمة الحق فيها.